النسب
والمولد
والنشأة

نسب النبى ﷺ وأسرته

نسب النبى ﷺ:

نسب نبينا محمد ﷺ ينقسم إلى ثلاثة أجزاء:

جزء اتفق عليه كافة أهل السير والأنساب، وهو الجزء الذى يبدأ منه ﷺ وينتهى إلى عدنان.

وجزء آخر كثر فيه الاختلاف، حتى جاوز حد الجمع والائتلاف، وهو الجزء الذى يبدأ بعد عدنان وينتهى إلى إبراهيم عليه السلام ، فقد توقف فيه قوم، وقالوا: لا يجوز سرده، بينما جوزه آخرون وساقوه. ثم اختلف هؤلا المجوزون فى عدد الآباء وأسمائهم، فاشتد اختلافهم وكثرت أقوالهم حتى جاوزت ثلاثين قولًا، إلا أن الجميع متفقون على أن عدنان من صريح ولد إسماعيل عليه السلام.

أما الجزء الثالث فهو يبدأ من بعد إبراهيم عليه السلام وينتهى إلى آدم عليه السلام، وجل الاعتماد فيه على نقل أهل الكتاب، وعندهم فيه من بعض تفاصيل الأعمار وغيرها ما لا نشك فى بطلانه، بينما نتوقف فى البقية الباقية.

وفيما يلى الأجزاء الثلاثة من نسبه الزكى ﷺ بالترتيب:

الجزء الأول: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - واسمه شَيْبَة - بن هاشم - واسمه عمرو - ابن عبد مناف - واسمه المغيرة - بن قُصَىّ - واسمه زيد - بن كِلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فِهْر - وهو الملقب بقريش وإليه تنتسب القبيلة - بن مالك ابن النَّضْر - واسمه قيس - بن كِنَانة بن خُزَيْمَة بن مُدْرِكة - واسمه عامر - بن إلياس ابن مُضَر بن نِزَار بن مَعَدّ بن عدنان[1].

الجزء الثانى: ما فوق عدنان، وعدنان هو ابن أُدَد بن الهَمَيْسَع بن سلامان بن عَوْص ابن بوز ابن قموال بن أبى بن عوام بن ناشد بن حزا بن بلداس بن يدلاف بن طابخ بن جاحم بن ناحش ابن ماخى بن عيض بن عبقر بن عبيد بن الدعا بن حَمْدان ابن سنبر بن يثربى بن يحزن بن يلحن بن أرعوى بن عيض بن ديشان بن عيصر بن أفناد بن أيهام بن مقصر بن ناحث بن زارح بن سمى بن مزى بن عوضة بن عرام بن قيدار بن إسماعيل بن

(١) ابن هشام ١/ ١، ٢، وتاريخ الطبرى ٢/ ٢٣٩ - ٢٧١.

إبراهيم عليهما السلام[١].

الجزء الثالث: ما فوق إبراهيم عليه السلام، وهو ابن تارَح - واسمه آزر - بن ناحور بن ساروع - أو ساروغ - بن رَاعُو بن فَالَخ بن عابر بن شَالَخ بن أَرْفَخْشَد بن سام بن نوح عليه السلام بن لامك بن مَتوشَلخَ بن أَخْنُوخ - يقال: هو إدريس النبى عليه السلام - بن يَرْد بن مَهْلائيل ابن قينان بن أَنُوش بن شِيث بن آدم - عليهما السلام[٢].

الأسرة النبوية:

تعرف أسرته ﷺ بالأسرة الهاشمية - نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف - وإذن فلنذكر شيئًا من أحوال هاشم ومن بعده:

١ - هاشم:

قد أسلفنا أن هاشمًا هو الذى تولى السقاية والرفادة من بنى عبد مناف حين تصالح بنو عبد مناف وبنو عبد الدار على اقتسام المناصب فيما بينهما، وكان هاشم موسرًا ذا شرف كبير، وهو أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة، وكان اسمه «عمرو»، فما سمى هاشمًا إلا لهشمه الخبز، وهو أول من سن الرحلتين لقريش، رحلة الشتاء والصيف، وفيه يقول الشاعر:

عمرو الـذى هَشَمَ الثريدَ لقومه ... قَـوم بمكة مُسْنِتِين عِـجَـافِ
سُـنَّـتْ إلـيـه الرحلتان كلاهما ... سَفَرُ الشتاء ورحلة الأصياف[٣]

ومن حديثه: أنه خرج إلى الشام تاجرًا، فلما قدم المدينة تزوج سلمى بنت عمرو أحد بنى عدى بن النجار وأقام عندها، ثم خرج إلى الشام - وهى عند أهلها قد حملت بعبد المطلب - فمات هاشم بغزة من أرض فلسطين، وولدت امرأته سلمى عبد المطلب سنة ٤٩٧ م، وسمته شيبة؛ لشيبة كانت فى رأسه[٤]، وجعلت تربيه فى بيت أبيها فى يثرب، ولم

---

(١) وذكره ابن سعد فى الطبقات ١/ ٥٦، ٥٧ برواية ابن الكلبى، ومن طريقه الطبرى فى تاريخه ٢/ ٢٧٢، وللاطلاع على بعض الاختلاف فى هذا الجزء. انظر: تاريخ الطبرى ٢/ ٢٧١- ٢٧٦، وفتح البارى ٦/ ٦٢١- ٦٢٣.

(٢) ابن هشام ١/ ٢ - ٤، وتاريخ الطبرى ٢/ ٢٧٦، واختلفت المصادر فى تلفظ بعض هذه الأسماء وفى إثبات البعض وإسقاطه.

(٣) ابن هشام ١/ ١٥٧ مع الروض الأنف، وفيه: الإيلاف، بدل: الأصياف. ومسنتين: أصابهم قحط.

(٤) ابن هشام ١/ ١٣٧.

يشعر به أحد من أسرته بمكة، وكان لهاشم أربعة بنين وهم: أسد، وأبو صيفى، ونضلة، وعبد المطلب. وخمس بنات وهن: الشفاء، وخالدة، وضعيفة، ورقية، وجنة[١].

٢ - عبد المطلب:

قد علمنا مما سبق أن السقاية والرفادة بعد هاشم صارت إلى أخيه المطلب بن عبد مناف (وكان شريفًا مطاعًا ذا فضل فى قومه، كانت قريش تسميه الفياض لسخائه) ولما صار شيبة - عبد المطلب - وصيفًا أو فوق ذلك ابن سبع سنين أو ثمانى سنين سمع به المطلب. فرحل فى طلبه، فلما رآه فاضت عيناه، وضمه، وأردفه على راحلته فامتنع حتى تأذن له أمه، فسألها المطلب أن ترسله معه، فامتنعت، فقال: إنما يمضى إلى ملك أبيه وإلى حرم الله فأذنت له، فقدم به مكة مردفه على بعيره، فقال الناس: هذا عبد المطلب، فقال: ويحكم، إنما هو ابن أخى هاشم، فأقام عنده حتى ترعرع، ثم إن المطلب هلك بـ (دمان) من أرض اليمن، فولى بعده عبد المطلب، فأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون لقومهم، وشرف فى قومه شرفًا لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم[٢].

ولما مات المطلب وثب نوفل على أركاح[٣] عبد المطلب فغصبه إياها، فسأل رجالًا من قريش النصرة على عمه، فقالوا: لا ندخل بينك وبين عمك، فكتب إلى أخواله من بنى النجار أبياتًا يستنجدهم، فسار خاله أبو سعد بن عدى فى ثمانين راكبًا، حتى نزل بالأبطح من مكة، فتلقاه عبد المطلب، فقال: المنزل يا خال، فقال: لا والله حتى ألقى نوفلًا، ثم أقبل فوقف على نوفل، وهو جالس فى الحجر مع مشايخ قريش، فسل أبو سعد سيفه وقال: ورب البيت، لئن لم ترد على ابن أختى أركاحه لأمكنن منك هذا السيف، فقال: رددتها عليه، فأشهد عليه مشايخ قريش، ثم نزل على عبد المطلب، فأقام عنده ثلاثًا، ثم اعتمر ورجع إلى المدينة. فلما جرى ذلك حالف نوفل بنى عبد شمس بن عبد مناف على بنى هاشم. ولما رأت خزاعة نصر بنى النجار لعبد المطلب قالوا: نحن ولدناه كما ولدتموه، فنحن أحق بنصره - وذلك أن أم عبد مناف منهم - فدخلوا دار الندوة وحالفوا بنى هاشم على بنى عبد شمس ونوفل، وهذا الحلف هو الذى صار سببًا لفتح مكة كما سيأتى[٤].

---

(١) المصدر نفسه ١/ ١٠٧.

(٢) ابن هشام ١/ ١٣٧، ١٣٨، وتعيين السن فى تاريخ الطبرى ٢/ ٢٤٧.

(٣) ممتلكاته من بيت وأساس وخلافه.

(٤) فصله الطبرى فى تاريخه ٢/ ٢٤٨- ٢٥١ وآخرون فى كتبهم.

ومن أهم ما وقع لعبد المطلب من أمور البيت شيئان:

حفر بئر زمزم ووقعة الفيل:

وخلاصة الأول: أنه أمر فى المنام بحفر زمزم ووصف له موضعها، فقام يحفر، فوجد فيه الأشياء التى دفنها الجراهمة حين لجأوا إلى الجلاء، أى: السيوف والدروع والغزالين من الذهب، فضرب الأسياف بابًا للكعبة، وضرب فى الباب الغزالين صفائح من ذهب، وأقام سقاية زمزم للحجاج.

ولما بدت بئر زمزم نازعت قريش عبد المطلب، وقالوا له: أشركنا. قال: ما أنا بفاعل، هذا أمر خصصت به، فلم يتركوه حتى خرجوا به للمحاكمة إلى كاهنة بنى سعد هُذَيْم، وكانت بأشراف الشام، فلما كانوا فى الطريق، ونفد الماء سقى الله عبد المطلب مطرًا، ولم ينزل عليهم قطرة، فعرفوا تخصيص عبد المطلب بزمزم ورجعوا، وحينئذ نذر عبد المطلب لئن آتاه الله عشرة أبناء، وبلغوا أن يمنعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة[1].

وخلاصة الثانى: أن أبرهة بن الصباح الحبشى، النائب العام عن النجاشى على اليمن، لما رأى العرب يحجون الكعبة بنى كنيسة كبيرة بصنعاء، وأراد أن يصرف حج العرب إليها، وسمع بذلك رجل من بنى كنانة، فدخلها ليلًا فلطخ قبلتها بالعذرة. ولما علم أبرهة بذلك ثار غيظه، وسار بجيش عرمرم - عدده ستون ألف جندى - إلى الكعبة ليهدمها، واختار لنفسه فيلا من أكبر الفيلة، وكان فى الجيش ٩ فيلة أو ١٣ فيلا، وواصل سيره حتى بلغ المُغَمَّس، وهناك عبأ جيشه وهيأ فيله، وتهيأ لدخول مكة، فلما كان فى وادى مُحَسِّر بين المزدلفة ومنى برك الفيل، ولم يقم ليقدم إلى الكعبة، وكانوا كلما وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم يهرول، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك، فبينا هم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول. وكانت الطير أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر ثلاثة أحجار؛ حجر فى منقاره، وحجران فى رجليه أمثال الحمص، لا تصيب منهم أحدًا إلا صارت تتقطع أعضاؤه وهلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يموج بعضهم فى بعض، فتساقطوا بكل طريق، وهلكوا على كل منهل، وأما أبرهة فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله، ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الفرخ، وانصدع صدره عن قلبه ثم هلك.

(١) ابن هشام ١/ ١٤٢-١٤٧.

وأما قريش، فكانوا قد تفرقوا فى الشعاب، وتحرزوا فى رءوس الجبال خوفًا على أنفسهم من معرة الجيش، فلما نزل بالجيش ما نزل رجعوا إلى بيوتهم آمنين[١].

وكانت هذه الوقعة فى شهر المحرم قبل مولد النبى ﷺ بخمسين يومًا أو بخمسة وخمسين يومًا - عند الأكثر - وهو يطابق أواخر فبراير أو أوائل مارس سنة ٥٧١ م، وكانت تقدمة قدمها الله لنبيه وبيته؛ لأنّا حين ننظر إلى بيت المقدس نرى أن المشركين من أعداء الله استولوا على هذه القبلة مرتين بينما كان أهلها مسلمين، كما وقع لبُخْتُنَصَّر سنة ٥٨٧ ق. م، والرومان سنة ٧٠ م، ولكن لم يتم استيلاء نصارى الحبشة على الكعبة وهم المسلمون إذ ذاك، وأهل الكعبة كانوا مشركين.

وقد وقعت هذه الوقعة فى الظروف التى يبلغ نبؤها إلى معظم المعمورة المتحضرة إذ ذاك. فالحبشة كانت لها صلة قوية بالرومان، والفرس لا يزالون لهم بالمرصاد، يترقبون ما نزل بالرومان وحلفائهم؛ ولذلك سرعان ما جاءت الفرس إلى اليمن بعد هذه الوقعة، وهاتان الدولتان كانتا تمثلان العالم المتحضر فى ذلك الوقت. فهذه الوقعة لفتت أنظار العالم ودلته على شرف بيت الله، وأنه هو الذى اصطفاه الله للتقديس، فإذن لو قام أحد من أهله بدعوى النبوة كان ذلك هو عين ما تقتضيه هذه الوقعة، وكان تفسيرًا للحكمة الخفية التى كانت فى نصرة الله للمشركين ضد أهل الإيمان بطريق يفوق عالم الأسباب.

وكان لعبد المطلب عشرة بنين، وهم: الحارث، والزبير، وأبو طالب، وعبد الله، وحمزة، وأبو لهب، والغَيْدَاق، والمُقَوِّم، وضِرَار، والعباس. وقيل: كانوا أحد عشر، فزادوا ولدًا اسمه: قُثَم، وقيل: كانوا ثلاثة عشر، فزادوا: عبد الكعبة وحَجْلًا، وقيل: إن عبد الكعبة هو المقوم، وحجلا هو الغيداق، ولم يكن من أولاده رجل اسمه قثم، وأما البنات فست وهن: أم الحكيم - وهى البيضاء - وبَرَّة، وعاتكة، وصفية، وأرْوَى، وأميمة[٢].

٣ـ عبد الله والد رسول الله ﷺ:

أمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يَقَظَة بن مرة، وكان عبد الله أحسن أولاد عبد المطلب وأعفهم وأحبهم إليه، وهو الذبيح؛ وذلك أن عبد المطلب لما تم أبناؤه عشرة، وعرف أنهم يمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه، فقيل: إنه أقرع بينهم أيهم

(١) ابن هشام ١/ ٤٣- ٥٦، وتفسير سورة الفيل من كتب التفاسير.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ١٠٨، ١٠٩، وتلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٨، ٩.

ينحر؟ فطارت القرعة على عبد الله، وكان أحب الناس إليه. فقال: اللهم هو أو مائة من الإبل. ثم أقرع بينه وبين الإبل فطارت القرعة على المائة من الإبل[١]، وقيل: إنه كتب أسماءهم فى القداح،وأعطاها قيم هبل، فضرب القداح فخرج القدح على عبد الله، فأخذه عبد المطلب، وأخذ الشفرة،ثم أقبل به إلى الكعبة ليذبحه،فمنعته قريش،ولاسيما أخواله من بنى مخزوم وأخوه أبو طالب. فقال عبد المطلب: فكيف أصنع بنذرى؟ فأشاروا عليه أن يأتى عرافة فيستأمرها، فأتاها، فأمرت أن يضرب القداح على عبد الله وعلى عشر من الإبل، فإن خرجت على عبد الله يزيد عشرًا من الإبل حتى يرضى ربه، فإن خرجت على الإبل نحرها، فرجع وأقرع بين عبد الله وبين عشر من الإبل، فوقعت القرعة على عبد الله، فلم يزل يزيد من الإبل عشرًا عشرًا ولا تقع القرعة إلا عليه إلى أن بلغت الإبل مائة فوقعت القرعة عليها، فنحرت ثم تركت، لا يرد عنها إنسان ولا سبع، وكانت الدية فى قريش وفى العرب عشرًا من الإبل، فجرت بعد هذه الوقعة مائة من الإبل، وأقرها الإسلام، وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «**أنا ابن الذبيحين**» يعنى: إسماعيل، وأباه عبد الله[٢].

واختار عبد المطلب لولده عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وهى يومئذ تعد أفضل امرأة فى قريش نسبًا وموضعًا، وأبوها سيد بنى زهرة نسبًا وشرفًا، فزوجه بها، فبنى بها عبد الله فى مكة، وبعد قليل أرسله عبد المطلب إلى المدينة يمتار لهم تمرًا، فمات بها، وقيل: بل خرج تاجرًا إلى الشام، فأقبل فى عير قريش، فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفى بها، ودفن فى دار النابغة الجعدى، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله ﷺ، وبه يقول أكثر المؤرخين، وقيل: بل توفى بعد مولده بشهرين أو أكثر[٣]. ولما بلغ نعيه إلى مكة رثته آمنة بأروع المراثى، قالت:

عَفَا جانبُ البطحاءِ من ابن هاشم ... وجاور لَحْدًا خارجًا فى الغَمَاغِم
دَعَتْـه المنايا دعـوة فأجابها ... وما تركتْ فى الناس مثل ابن هاشم
عشية راحـوا يحملون سريره ... تَـعَـاوَرَهُ أصحابه فـى التزاحم
فـإن تـك غالته المنايا ورَيْبُها ... فقد كان مِعْطاءً كثير التراحم[٤]

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٣٩.
(٢) ابن هشام ١/ ١٥١- ١٥٥، وتاريخ الطبرى ٢/ ٢٤٠- ٢٤٣.
(٣) ابن هشام ١/ ١٥٦، ١٥٨، وتاريخ الطبرى ٢/ ٢٤٦، والروض الأنف ١/ ١٨٤.
(٤) طبقات ابن سعد ١/ ١٠٠. والغماغم: الأغطية، وتعاوره: تداوله.

وجميع ما خلفه عبد الله خمسة أجمال، وقطعة غنم، وجارية حبشية اسمها بركة وكنيتها أم أيمن، وهى حاضنة رسول الله ﷺ[١].

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٣٩٢، ح (١٧٧١)، وتلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٤.

المولد وأربعون عامًا قبل النبوة

المولد:

ولد سيد المرسلين ﷺ بشعب بنى هاشم بمكة فى صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل[١]، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان، ويوافق ذلك عشرين أو اثنين وعشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١م، حسبما حققه العالم الكبير محمد سليمان - المنصورفورى - رحمه الله[٢].

وروى ابن سعد أن أم رسول الله ﷺ قالت: لما ولدته خرج من فرجى نور أضاءت له قصور الشام. وروى أحمد والدارمى وغيرهما قريبًا من ذلك[٣].

وقد روى أن إرهاصات بالبعثة وقعت عند الميلاد، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى، وخمدت النار التى يعبدها المجوس، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت، روى ذلك الطبرى والبيهقى وغيرهما[٤]. وليس له إسناد ثابت، ولم يشهد له تاريخ تلك الأمم مع قوة دواعى التسجيل.

ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده،فجاء مستبشرًا ودخل به الكعبة، ودعا الله وشكر له[٥]. واختار له اسم محمد - وهذا الاسم لم يكن معروفًا فى العرب - وخَتَنَه يوم سابعه، كما كان العرب يفعلون[٦].

وأول من أرضعته من المراضع - وذلك بعد أمه ﷺ بأسبوع[٧] - ثُوَيْبَة مولاة أبى لهب

---

(١) انظر: نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الإسلام، ص ٢٨ - ٣٥ لمحمود باشا الفلكى، ط. بيروت.

(٢) ٢٠ أبريل حسب التقويم الميلادى القديم و ٢٢ أبريل حسب التقويم الميلادى الجديد، وللتفصيل انظر: رحمة للعالمين ١/ ٣٨، ٣٩، ٢/ ٣٦٠، ٣٦١.

(٣) مسند أحمد ٤/ ١٢٧، ١٢٨، ١٨٥، ٥/ ٢٦٢، وسن الدارمى ١/ ٩، وابن سعد ١/ ١٠٢.

(٤) انظر: دلائل النبوة للبيهقى ١/ ١٢٦، ١٢٧، وتاريخ الطبرى ٢/ ١٦٦، ١٦٧، والبداية والنهاية ٢/ ٢٦٨، ٢٦٩.

(٥) ابن هشام ١/ ١٥٩، ١٦٠، وتاريخ الطبرى ٢/ ١٥٦، ١٥٧، وابن سعد ١/ ١٠٣.

(٦) يقال: إنه ولد مختونًا «تلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٤»، وقال ابن القيم: ليس فيه حديث ثابت. انظر. زاد المعاد ١/ ١٨.

(٧) إتحاف الورى ١/ ٥٧.

بلبن ابن لها يقال له: مَسْرُوح، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة ابن عبد الأسد المخزومى[١].

فى بنى سعد:

وكانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم ابتعادًا لهم عن أمراض الحواضر؛ ولتقوى أجسامهم، وتشتد أعصابهم، ويتقنوا اللسان العربى فى مهدهم، فالتمس عبد المطلب لرسول الله ﷺ المراضع، واسترضع له امرأة من بنى سعد بن بكر، وهى حليمة بنت أبى ذؤيب عبد الله بن الحارث، وزوجها الحارث بن عبد العزى، المكنى بأبى كبشة من نفس القبيلة.

وإخوته ﷺ هناك من الرضاعة: عبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث، وحذافة أو جذامة بنت الحارث (وهى الشيماء؛ لقب غلب على اسمها) وكانت تحضن رسول الله ﷺ، وأبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ، وكان عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضعًا فى بنى سعد بن بكر، فأرضعت أمه رسول الله ﷺ يومًا وهو عند أمه حليمة،فكان حمزة رضيع رسول الله ﷺ من جهتين، من جهة ثويبة ومن جهة السعدية[٢].

ورأت حليمة من بركته ﷺ ما قضت منه العجب، ولنتركها تروى ذلك مفصلًا:

قال ابن إسحاق: كانت حليمة تحدث: أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه فى نسوة من بنى سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء. قالت: وذلك فى سنة شهبا[٣] لم تبق لنا شيئًا، قالت: فخرجت على أتان لى قمراء[٤]، ومعنا شارف[٥] لنا، والله ما تَبِضُّ[٦] بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا، من بكائه من الجوع، ما فى ثديى ما يغنيه، وما فى شارفنا ما يغذيه، ولكن كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتانى تلك، فلقد أَذَمَّتْ[٧] بالركب حتى شق ذلك عليهم، ضعفًا وعجفًا، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبى الصبى، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه

---

(١) صحيح البخارى، ح (٢٦٤٥، ٥١٠٠، ٥١٠١، ٥١٠٦، ٥١٠٧، ٥٣٧٢)، وتاريخ الطبرى ٢/ ١٥٨ وفى سنده مقال، ودلائل النبوة لأبى نعيم ١/ ١٥٧.

(٢) زاد المعاد ١/ ١٩.

(٣) مجدبة لا خضرة فيها ولا مطر.

(٤) بيضاء.

(٥) الشارف: الناقة المسنة.

(٦) بض الماء: قطر وسال قليلًا قليلًا.

(٧) أبطأت وحبست.

وجده، فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعًا غيرى، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى: والله، إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعًا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه. قال: لا عليك أن تفعلى، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه وأخذته،وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره، قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلى، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن، فشرب حتى روى، وشرب معه أخوه حتى روى، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجى إلى شارفنا تلك، فإذا هى حافل[١]، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا، فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبى حين أصبحنا: تعلمى والله يا حليمة، لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت: والله إنى لأرجو ذلك. قالت: ثم خرجنا وركبت أنا أتانى، وحملته عليها معى، فوالله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شىء من حمرهم، حتى إن صواحبى ليقلن لى: يا ابنة أبى ذؤيب، ويحك ! أرْبِعى علينا[٢]، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله، إنها لهى هى، فيقلن: والله إن لها شأنًا، قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد، وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمى تروح علىَّ حين قدمنا به معنا شباعًا لُبَّنًا[٣]، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها فى ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم، اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعًا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمى شباعًا لبنًا. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفرًا[٤]. قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرص على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركت ابنى عندى حتى يغلظ، فإنى أخشى عليه وباء مكة، قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا[٥].

---

(١) أى: ممتلئة لبنًا.

(٢) أربعى علينا: ارفقى بنا.

(٣) لبنًا، بضم فتشديد: ممتلئة الضرع باللبن.

(٤) قويًّا شديدًا.

(٥) ابن هشام ١/ ١٦٢- ١٦٤، وتاريخ الطبرى ٢/ ١٥٨، ١٥٩، وابن حبان «الإحسان» ٨/ ٨٢- ٨٤، وابن سعد ١/ ١١١ كلهم من طريق ابن إسحاق مع اختلاف يسير فى الألفاظ.

شق الصدر:

وهكذا رجع رسول الله ﷺ إلى بنى سعد، حتى إذا كان بعده بأشهر على قول ابن إسحاق[١]، وفى السنة الرابعة من مولده على قول المحققين[٢]، وقع حادث شق صدره، روى مسلم عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله فى طَسْت من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَه - أى جمعه وضم بعضه إلى بعض - ثم أعاده فى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعنى ظئره[٣] - فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو مُنْتَقِعُ اللون - أى متغير اللون - قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط فى صدره[٤].

إلى أمه الحنون:

وخشيت عليه حليمة بعد هذه الوقعة حتى ردته إلى أمه، فكان عند أمه إلى أن بلغ ست سنين.

ورأت آمنة - وفاء لذكرى زوجها الراحل - أن تزور قبره بيثرب، فخرجت من مكة قاطعة رحلة تبلغ نحو خمسمائة كيلو متر ومعها ولدها اليتيم - محمد ﷺ - وخادمتها أم أيمن، وقيمها عبد المطلب، فمكثت شهرًا ثم قفلت، وبينما هى راجعة إذ لحقها المرض فى أوائل الطريق، ثم اشتد حتى ماتت بالأبْوَاء بين مكة والمدينة[٥].

إلى جده العطوف:

وعاد به عبد المطلب إلى مكة، وكانت مشاعر الحنو فى فؤاده تربو نحو حفيده اليتيم الذى أصيب بمصاب جديد نَكَأ الجروح القديمة، فَرَقَّ عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده، فكان لا يدعه لوحدته المفروضة، بل يؤثره على أولاده، قال ابن هشام: كان يوضع

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ١٦٤، ١٦٥، وتاريخ الطبرى ٢/ ١٦٠.

(٢) انظر: ابن سعد ١/ ١١٢، ومروج الذهب للمسعودى ٢/ ٢٨١، ودلائل النبوة لأبى نعيم ١ / ١٦١، ١٦٢، وعنده على قول ابن عباس: كان فى السنة الخامسة ١/ ١٦٢، وقول ابن إسحاق شبه متناقض؛ لأن رعى الغنم لا يتصور من صبى لم يكمل من عمره إلا سنتين. ولا يزال فى بداية الثالثة.

(٣) الظئر: هى المرضعة، وربما يطلق على زوجها أيضا.

(٤) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء ١/ ١٤٧، ح (٢٦١).

(٥) انظر: ابن هشام ١/ ١٦٨، وتلقيح الفهوم، ص ٧.

لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالًا له، فكان رسول الله ﷺ يأتى وهو غلام جفر حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابنى هذا، فوالله إن له لشأنًا، ثم يجلس معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع[١].

ولثمانى سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمره ﷺ توفى جده عبد المطلب بمكة، ورأى قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبى طالب شقيق أبيه[٢].

إلى عمه الشفيق:

ونهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه، وضمه إلى ولده وقدمه عليهم واختصه بفضل احترام وتقدير، وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه، ويبسط عليه حمايته، ويصادق ويخاصم من أجله، وستأتى نبذ من ذلك فى مواضعها.

يستسقى الغمام بوجهه:

أخرج ابن عساكر عن جَلْهُمَة بن عُرْفُطَة قال: قدمت مكة وهم فى قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب، أقحط الوادى، وأجدب العيال، فهَلُمَّ فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام، كأنه شمس دُجُنَّة[٣]، تجلت عنه سحابة قَتْمَاء[٤]، حوله أُغَيْلمة، فأخذه أبو طالب، فألصق ظهره بالكعبة،ولاذ بأضبعه الغلام، وما فى السماء قَزَعَة[٥]، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا وأغدق واغْدَوْدَق، وانفجر الوادى، وأخصب النادى والبادى، وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال:

وأبيضَ يُستسقى الغَمَام بوجهه ثِمـالُ اليتامـى عِصْمَـةٌ للأرامـل[٦]

بَحِيرَى الراهب:

ولما بلغ رسول الله ﷺ اثنتى عشرة سنة – قيل: وشهرين وعشرة أيام[٧] – ارتحل به أبو

(١) ابن هشام ١/ ١٦٨.
(٢) ابن هشام ١/ ١٦٩، وتلقيح الفهوم، ص ٧.
(٣) الدجنة: الظُّلّة. (٤) غَبراء.
(٥) سحابة.
(٦) مختصر السيرة للشيخ عبد الله، ص ١٥، ١٦، وأورد الهيثمى فى مجمع الزوائد عن الطبرانى مثل هذه القصة فى كتاب علامات النبوة ٨/ ٢٢٢. وثمال اليتامى: يقوم بأمرهم.
(٧) قاله ابن الجوزى فى تلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٧.

طالب تاجرًا إلى الشام، حتى وصل إلى بُصْرَى - وهى معدودة من الشام، وقَصَبَة لحُورَان، وكانت فى ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التى كانت تحت حكم الرومان- وكان فى هذا البلد راهب عرف ببَحِيرَى، واسمه - فيما يقال- جرجيس، فلما نزل الركب خرج إليهم، وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك، فجعل يتخلّلهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ، وقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال له [أبو طالب و] أشياخ قريش: [و] ما علمك [بذلك]؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خر ساجدًا، ولا يسجدان إلا لنبى، وإنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، [وإنا نجده فى كتبنا]، ثم أكرمهم بالضيافة، وسأل أبا طالب أن يرده، ولا يقدم به إلى الشام؛ خوفًا عليه من الروم واليهود، فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى مكة[(١)].

حرب الفِجَار:

وفى السنة العشرين من عمره ﷺ وقعت فى سوق عُكاظ حرب بين قريش - ومعهم كنانة - وبين قَيْس عَيْلان، تعرف بحرب الفِجَار[(٢)] وسببها: أن أحد بنى كنانة، واسمه البَرَّاض، اغتال ثلاثة رجال من قيس عيلان، ووصل الخبر إلى عكاظ فثار الطرفان، وكان قائد قريش وكنانة كلها حرب بن أمية؛ لمكانته فيهم سنا وشرفًا، وكان الظفر فى أول النهار لقيس على كنانة، حتى إذا كان فى وسط النهار كادت الدائرة تدور على قيس. ثم تداعى بعض قريش إلى الصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين، فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد. فاصطلحوا على ذلك، ووضعوا الحرب، وهدموا ما كان بينهم من العداوة والشر. وسميت

(١) انظر: جامع الترمذى ٥/ ٥٥٠، ٥٥١، ح (٣٦٢٠)، وتاريخ الطبرى ٢/ ٢٧٨، ٢٧٩، والمصنف لابن أبى شيبة ١١/ ٤٨٩، ح (١١٧٨٢)، ودلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٢٤، ٢٥، ولأبى نعيم ١/ ١٧٠ وإسناده ثابت قوى، ووقع فى آخره: أن أبا بكر بعث معه ﷺ بلالًا، «وهو من الغلط الواضح، فإن بلالًا إذ ذاك لعله لم يكن موجودًا، وإن كان موجودًا فلم يكن مع عمه ولا مع أبى بكر». قاله ابن القيم فى زاد المعاد ١/ ١٧، وقد روى فى القصة تفاصيل أخرى، رواها ابن سعد فى الطبقات ١/ ١٢٠ بأسانيد واهية، وذكرها ابن إسحاق بدون إسناد، حكاها عن ابن هشام ١/ ١٨٠- ١٨٣، والكبرى ٢/ ٢٧٧، والبيهقى وأبو نعيم.

(٢) والفجارات «بكسر الفاء» بين هذين الفريقين أربعة؛ الثلاثة الأول منها كان فيها خصام واشتجار طفيف، ثم اصطلحوا بدون قتال، فالأول: سببه مماطلة دين كان لقيسى على كنانى، والثانى: سببه تفاخر كنانى فى سوق عكاظ، والثالث: سببه تعرض فتيان مكة لامرأة جميلة من قيس، أما الرابع: فهو فجار البراض الذى ذكرناه فى الكتاب، ولينظر للتفصيل: المنمق فى أخبار قريش، ص ١٦٠- ١٦٤، والكامل لابن الأثير ١/ ٤٦٧ وهو جعل الثلاثة الأول واحدًا.

بحرب الفجار؛ لانتهاك حرمة الشهر الحرام فيها، وقد حضر هذه الحرب رسول الله ﷺ، وكان ينبل على عمومته؛ أى: يجهز لهم النبل للرمى[١].

حلف الفضول:

وعلى أثر هذه الحرب وقع حلف الفضول فى ذى القعدة فى شهر حرام تداعت إليه قبائل من قريش: بنو هاشم، وبنو المطلب،وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم ابن مرة، فاجتمعوا فى دار عبد الله بن جُدْعان التيمى؛ لسنِّه وشرفه، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، وشهد هذا الحلف رسول الله ﷺ. وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة: «**لقد شهدت فى دار عبد الله ابن جدعان حلفًا، ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت**»[٢].

وهذا الحلف روحه تنافى الحمية الجاهلية التى كانت العصبية تثيرها، ويقال فى سبب هذا الحلف: إن رجلًا من زُبَيْد قدم مكة ببضاعة، واشتراها منه العاص بن وائل السهمى، وحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الأحلاف عبد الدار ومخزومًا، وجُمَحًا وسَهْمًا وعَدِيّا فلم يكترثوا له، فعلا جبل أبى قُبَيْس، ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته رافعًا صوته، فمشى فى ذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال: ما لهذا مترك؟ حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم فى حلف الفضول، فعقدوا الحلف ثم قاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الزبيدى[٣].

حياة الكدح:

ولم يكن له ﷺ عمل معين فى أول شبابه، إلا أن الروايات توالت أنه كان يرعى غنمًا، رعاها فى بنى سعد[٤]، وفى مكة لأهلها على قراريط[٥]، ويبدو أنه انتقل إلى عمل التجارة حين شب،فقد ورد أنه كان يتجر مع السائب بن أبى السائب المخزومى فكان خير شريك

(١) ابن هشام ١/ ١٨٤- ١٨٧، والمنمق فى أخبار قريش، ص ١٦٤- ١٨٥، والكامل لابن الأثير ١/ ٤٦٨- ٤٧٢، قالوا: كانت فى شوال، ولا يصح؛ لأن شهر شوال ليس بالشهر الحرام، وعكاظ خارج عن الحرم، فما هى الحرمة التى انتهكت؟ على أن سوق عكاظ كان يقام من بداية ذى القعدة.

(٢) ابن هشام ١/ ١٥٤، ١٥٥.

(٣) طبقات ابن سعد ١/ ١٢٦- ١٢٨، ونسب قريش للزبيرى، ص ٢٩١.

(٤) ابن هشام ١/ ١٦٦.

(٥) صحيح البخارى: كتاب الإجارات، باب رعى الغنم على قراريط، ح (٢٢٦٢).

له، لا يدارى ولا يمارى، وجاءه يوم الفتح فرحب به، وقال: مرحبًا بأخى وشريكى[١].

وفى الخامسة والعشرين من سنه خرج تاجرًا إلى الشام فى مال خديجة رضي الله عنها، قال ابن إسحاق: كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال فى مالها، وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم، وكانت قريش قومًا تجارًا، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار، مع غلام لها يقال له: ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج فى مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام[٢].

زواجه بخديجة:

ولما رجع إلى مكة، ورأت خديجة فى مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه ﷺ من خلال عذبة، وشمائل كريمة، وفكر راجح، ومنطق صادق، ونهج أمين، وجدت ضالتها المنشودة - وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجها فتأبى عليهم ذلك - فتحدثت بما فى نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبه، وهذه ذهبت إليه ﷺ تفاتحه أن يتزوج خديجة، فرضى بذلك، وكلم أعمامه، فذهبوا إلى عم خديجة وخطبوها إليه، وعلى إثر ذلك تم الزواج، وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين[٣]، وأصدقها عشرين بَكْرة. وكانت سنها إذ ذاك أربعين سنة، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسبًا وثروة وعقلًا، وهى أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت.

وكل أولاده ﷺ منها سوى إبراهيم،ولدت له: أولًا القاسم - وبه كان يكنى - ثم زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وعبد الله. وكان عبد الله يلقب بالطيب والطاهر، ومات بنوه كلهم فى صغرهم، أما البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن،إلا أنهن أدركتهن الوفاة فى حياته ﷺ سوى فاطمة رضي الله عنها، فقد تأخرت بعده ستة أشهر ثم لحقت به[٤].

---

(١) سنن أبى داود ٢/ ٦١١، وابن ماجه ٣/ ٧٦٨، ح (٢٢٨٧)، ومسند أحمد ٣/ ٤٢٥.

(٢) ابن هشام ١/ ١٨٧، ١٨٨.

(٣) وقد حدد المسعودى خروجه ﷺ إلى الشام بأربع سنين وتسعة أشهر وستة أيام بعد الفجار، وزواجه بخديجة بشهرين وأربعة وعشرين يوما بعد الخروج إلى الشام. انظر: مروج الذهب ٢/ ٢٧٨.

(٤) ابن هشام ١/ ١٨٩- ١٩١، وفتح البارى ٧/ ١٠٥، وتلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٧.

بناء الكعبة وقضية التحكيم:

ولخمس وثلاثين سنة من مولده ﷺ قامت قريش ببناء الكعبة؛ وذلك لأن الكعبة كانت رَضْمًا[١] فوق القامة، ارتفاعها تسعة أذرع من عهد إسماعيل عليه السلام، ولم يكن لها سقف، فسرق نفر من اللصوص كنزها الذى كان فى جوفها، وكانت مع ذلك قد تعرضت - باعتبارها أثرًا قديما - للعوادى التى أدهت بنيانها، وصدعت جدرانها، وقبل بعثته ﷺ بخمس سنين جرف مكة سيل عرم انحدر إلى البيت الحرام، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصًا على مكانتها، واتفقوا على ألا يدخلوا فى بنائها إلا طيبًا، فلا يدخلون فيها مهر بغى ولا بيع ربًا ولا مظلمة أحد من الناس، وكانوا يهابون هدمها، فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومى، فأخذ المعول وقال: اللهم لا نريد إلا الخير، ثم هدم ناحية الركنين، ولما لم يصبه شىء تبعه الناس فى الهدم فى اليوم الثانى، ولم يزالوا فى الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم، ثم أرادوا الأخذ فى البناء فجزأوا الكعبة، وخصصوا لكل قبيلة جزءًا منها. فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة، وأخذوا يبنونها، وتولى البناء بناء رومى اسمه: باقوم. ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه فى مكانه، واستمر النزاع أربع ليال أو خمسًا، واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس فى أرض الحرم، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومى عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ، فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين، رضيناه، هذا محمد، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر طلب رداء فوضع الحجر وسطه وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده فوضعه فى مكانه، وهذا حل حصيف رضى به القوم.

وقصرت بقريش النفقة الطيبة، فأخرجوا من الجهة الشمالية نحوا من ستة أذرع، وهى التى تسمى بالحجر والحطيم، ورفعوا بابها من الأرض؛ لئلا يدخلها إلا من أرادوا، ولما بلغ البناء خمسة عشر ذراعًا سقفوه على ستة أعمدة.

وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريبًا، يبلغ ارتفاعه ١٥ مترًا، وطول ضلعه الذى فيه الحجر الأسود والمقابل له ١٠ أمتار، والحجر موضوع على ارتفاع ١,٥٠ متر من أرضية المطاف. والضلع الذى فيه الباب والمقابل له ١٢مترًا، وبابها على

(١) صخورا عظاما.

ارتفاع مترين من الأرض، ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء أسفلها، متوسط ارتفاعها ٢٥ , ٠ مترًا ومتوسط عرضها ٣٠ , ٠ مترًا وتسمى بالشاذروان، وهى من أصل البيت لكن قريشًا تركتها[١].

السيرة الإجمالية قبل النبوة:

كان النبى ﷺ قد جمع فى نشأته خير ما فى طبقات الناس من ميزات، وكان طرازًا رفيعًا من الفكر الصائب، والنظر السديد، ونال حظًّا وافرًا من حسن الفطنة وأصالة الفكرة وسداد الوسيلة والهدف، وكان يستعين بصمته الطويل على طول التأمل وإدمان الفكرة واستكناه الحق، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات، فعاف ما سواها من خرافة، ونأى عنها، ثم عاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم، فما وجد حسنًا شارك[٢] فيه وإلا عاد إلى عزلته العتيدة، فكان لا يشرب الخمر، ولا يأكل مما ذبح على النصب، ولا يحضر للأوثان عيدًا ولا احتفالًا، بل كان من أول نشأته نافرا من هذه المعبودات الباطلة، حتى لم يكن شىء أبغض إليه منها، وحتى كان لا يصبر على سماع الحلف باللات والعزى[٣].

ولا شك أن القدر حاطه بالحفظ، فعندما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا، وعندما يرضى باتباع بعض التقاليد غير المحمودة - تتدخل العناية الربانية للحيلولة بينه وبينها، قال رسول الله ﷺ: «**ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين، كل ذلك يحول الله بينى وبينه، ثم ما هممت به حتى أكرمنى برسالته، قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى الغنم بأعلى مكة: لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب، فقال: أفعل، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفًا، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: عرس فلان بفلانة، فجلست أسمع، فضرب الله على أذنى فنمت،**

(١) انظر فى تفصيل بناء الكعبة: ابن هشام ٢/ ١٩٢- ١٩٧، وتاريخ الطبرى ٢/ ٢٨٩ وما بعدها، وصحيح البخارى: باب فضل مكة وبنيانها ١/ ٢١٥، وخبر التحكيم أيضًا فى مسند أبى داود الطيالسى، وانظر أيضًا: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١/ ٦٤، ٦٥.

(٢) فمثلًا: كانت قريش تصوم عاشوراء فى الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ أيضا يصومه فى الجاهلية. انظر: صحيح البخارى، ح (٢٠٠٢)، مع فتح البارى ٤/ ٢٨٧.

(٣) انظر لذلك: ابن هشام ١/ ١٢٨، وتاريخ الطبرى ٢/ ١٦١، وتهذيب تاريخ دمشق ١/ ٣٧٣، ٣٧٦.

فما أيقظنى إلا حر الشمس. فعدت إلى صاحبى فسألنى، فأخبرته، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك، ودخلت بمكة فأصابنى مثل أول ليلة... ثم ما هممت بسوء»[(١)].

وروى البخارى عن جابر بن عبد الله قال: لما بنيت الكعبة ذهب النبى ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال عباس للنبى ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق، فقال: «**إزارى، إزارى**» فشد عليه إزاره. وفى رواية: فما رؤيت له عورة بعد ذلك[(٢)].

وكان النبى ﷺ يمتاز فى قومه بخلال عذبة، وأخلاق فاضلة، وشمائل كريمة، فكان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأعزهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وألينهم عَرِيكة، وأعفهم نفسًا وأكرمهم خيرًا، وأبرهم عملًا، وأوفاهم عهدًا، وآمنهم أمانة حتى سماه قومه: (الأمين) لما جمع فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية، وكان -كما قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها: يحمل الكل، ويكسب المعدوم، ويقرى الضيف، ويعين على نوائب الحق[(٣)].

(١) الحديث رواه الطبرى ٢/ ٢٧٩ وغيره، وصححه الحاكم وتبعه الذهبى، وضعفه ابن كثير: البداية والنهاية ٢/ ٢٨٧.

(٢) صحيح البخارى، ح (١٥٨٢)، وفتح البارى ٣/ ٥١٣، وح (٣٨٢٩)، ٧/ ١٨٠، وانظر أيضا: فتح البارى ٣/ ٥١٧، ومسند أحمد ٣/ ٢٩٥، ٣١٠، ٣٣٣، ٣٨٠.

(٣) صحيح البخارى، ح (٣).